الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

عصارة المتاعب — الانتاج والاستهلاك فى الحياة الأدبية — عتاب !

عصارة المتاعب

من عصارة المتاعب يصاغ إكليل المجد ، ومن عصارة المتاعب يُرفع ناسٌ من التراب إلى السحاب

كذلك قلتُ وأنا أدفع وهماً رسخ رسوخ الحقائق ، بحيث صار الأمل فى زعزعته من أخيب الآمال ، وهو الوهم الذى يزعم أن الحياة السعيدة هى الحياة الخالية من التكاليف ، وهذا الوهم يحيط بنا من كل جانب ، ويملأ حياتنا بالمنغصات ، لأنه يفرض علينا أن نفهم أن الراحة هى الغرض المنشود ، وأن كلمة التعب تماثل كلمة الشقاء فى المدلول

ما هو الفرق بين الرئيس والمرءوس فى وهم بعض الناس ؟

الفرق هو أن الرئيس يملك من الراحة ما لا يملك المرءوس ، فهو لا يُسأل عن رعاية المواعيد ، ولا يطالَب بالسرعة فى إنجاز ما لديه من الأعمال (؟!)

وفى الأمثال المصرية كلمات تؤيد هذا المعنى ، فالرجل السعيد هو الذى لا يستطيع أحدٌ أن يقول له : « قُم من الشمس واقعد فى الظل » ، وهو الذى لا يُسأل عن « ثلث الثلاثة » ، كأن المسئولية تكليف يكدّر صفو الهناء

ولنفرض أن الراحة هى الغاية ، وأن كل رئيس يتمتع بها إلى أقصى حدود التمتع ، فما السبب فى أن تكون هذه المزية من حق بعض الناس لا كل الناس ؟ وما هو السبب فى أن يقضى فلانٌ عمره وهو مرءوس وقد أصبح نظراؤه من الرؤساء ؟

الجواب حاضر : فكل تقدم يُسبَق بتزكية من عصارة المتاعب ، ومن لم يقدمه جهاده فان يتقدم ، ولو كان أبوه أقدر الرجال على إحياء الأرض الموات !

هل كانت الراحة من أنصبة الملوك ، مع أنهم ملوك ؟

وهل ظفر عظيمٌ بالراحة فى أى يوم ؟

إن الراحة متعة حقيرة لا يرغب فيها غير الحقراء

لقد امتلأت كتب الأدب بأخبار الملاهى التى كانت تقام فى قصور الملوك . فهل فكر أحدٌ فى أسباب تلك الملاهى وهل قال قائلٌ إنها ضجيجٌ يراد به ستر المتاعب ؟

التعب هو المقياس للقيمة الذاتية ، والعمل المتعب هو الذى يرشح صاحبه لجلائل الأعمال ، والذى لا يرحب بالتعب ولا يفرح به لن يصل إلى شىء . . . والطمع فى الراحة هو طمع الأموات لا الأحياء . . . وهل يثق بك أحدٌ وهو يعرف أن الراحة من التعب هى غايتك ، وأن التحرر من التكاليف هو مبتغاك ؟

عُصارة المتاعب

إحفظ هذه اللفظة جيداً ، واكتب منها لوحات يزدان بها مكتبك ، وانظر إليها فى صباحك وفى مسائك ، واعلم علم اليقين أنها مسطورة فوق كل قلب من قلوب المجاهدين الفائزين

عُصارة المتاعب نقلت خلائق من التراب إلى السحاب ، فلا يخطر فى وهمك أن إنساناً ارتفع بلا متاعب ، ولا تصدّق أن المناصب العالية تُمنَح كما تمنح الصدقات للعموزين ، ولا تتصور أن نظام الوجود يسمح بأن يرتفع طائر بلا جناح أو يرتقى رجل بلا جهاد

يقول الكسالى من حولك بأنْ لا نهوض بلا وسيط ، وهم يردّون كل فوز إلى قوة الوساطات والشفاعات

ولنسلّم بأن هذا القول صحيح فى الطالب الهيّنة ، كأن يكون غرضك أن تكون موظفاً يأكل العيش بأحد الدواوين ، فمن الذى يرشحك لأن تقوم بعمل عظيم ولست له بأهل ؟ من الذى يوصى بأن تكون قوة مسيطرة على زمانك وهو يدرك أنك تعجز عن السيطرة الفكرية أو الروحية فى أى ميدان ؟

وكيف تصل إلى توصية من رجل عظيم وأنت مجرد من الكفاية الذاتية ؟

أقم الدليلَ أولاً على صلاحيتك للأعمال التى لا يقوم بها غير فحول الرجال ، ثم انتظر نصيبك الحق ، فقد تصل إليه بلا وسطاء ولا شفعاء

هل جال بخاطرك أن توازن بين رجلين أحدهما فى مركز

فوق ما يستحق ، وثانيهما فى مركز دون ما يستحق ؟ فأى الرجلين أعظم فى نفسك ؟ وأىّ حظ من هذين الحظين تريد لنفسك ؟

وهل فكرت يوماً فى غضب الله على من يأخذ أجراً بحق ؟

أنا أخشى أن يكون رزقك أكبر من جهادك ، فيكون فى طعامك شىء من الحرام ، والطعام لا يُسْمن إلا إن كان حلالاً فى حلال

ثم ؟ ثم ماذا ؟

هل فكرت فى منافع الأعضاء ؟(١)

كلُّ عضو يمرَّض للعطب إن لم يؤدِّ أعماله الأساسية ، فالعين تَضعُف إن صُرفت عن النظر ، والرجل تَثقُل إن كُفَّتْ عن المشي ، فما رأيك فى عزيمتك وهى جارحة معنوية ؟

أنا أعرف أنك تشتهي أن يحمل عنك الناس جميع أعبائك ، وأن تركب فرساً رِكبة الإعزاز لا رِكبة الفروسية ، وما أبعدَ الفرقَ بين الرِّكبتين !

الراكب الأول مخلوقٌ مدلَّل تُراضُ له الفَرَس ، والراكب الثانى فارسٌ يروض الفَرَس ، فانظر أين أنت بين هذا وذاك ؟

كن رجلاً فعَّالاً يصنع العجائب فى تصريف دنياه ، كن رجلاً يفرح بالتعب ، فالتعب أعظم رزق من أرزاق الرجال

لم يتقدم فردٌ على فرد ولا شعبٌ على شعب إلا بفضل عصارة المتاعب ، ولا جاز أن يتقدم متخلف أو يتخلف متقدم إلا بسبب تفاوت الجهاد

والأقدار التى سمحت بأن يكون فلان وزيراً فى المملكة الفلانية — وكان فى صباه بائع جرائد — هذه الأقدار لم تحابِه بأى لون من ألوان المحاباة ، وإنما احترمت عصارة المتاعب فى الأعوام الشِّداد فصيرته من الوزراء

ولتعرف جيداً أنْ لا نهاية لفضل الله على المجاهدين ، فعنده طيبات تفوق الوصف والإحصاء ، وهو لا يتخلى عنك إلا يومَ تتخلى عن نفسك بإيثار الراحة من عناء الجهاد

إفرح بالتعب ، واسأل الله أن يكثر متاعبك فى أعمالك لا فى أوهامك ، فما شقى الناس إلا بالتعب فى الأوهام لا الأعمال

إفرح بالتعب ، قبل أن لا تفرح بالتعب ، فما يعانى التعب غير الأقوياء

وتذوَّق عَرَق الجبين من التعب قبل أن تعانيه من المرض

واحذرْ ثم احذر أن تمرَّ عليك ساعة وأنت مستريح من هموم الرجال

هل سمعت باسم « الغرَّازة » فى عُرف أصحاب البساتين ؟

هى عُودٌ من الخشب تُسنَد به الشجرة الهيفاء ، ومن الهَيَف فى الأشجار ، جاء الهيَف فى النساء

ومزية الغرَّازة أنها تغني الشجرة عن الجهد فى مقاومة الرياح إلى أن تستطيع المقاومة بعد حين ؛ وقد لا تستطيع بفضل هذا التدليل

والغرازة للشجرة كالمشَّاية للطفل ، وفى الناس من يعيش طفلاً طول عمره ، لأنه لا يعيش بغير سناد

كن أنت ، وقِفْ على قدميك ، واستفت ضميرك فى مصيرك ، ولا تجعل لغيرك فضلاً فى نقلك من حال إلى أحوال

لا تخف من التوحُّد . فما يتوحد غير الآساد ، واذكر دائماً أن الله جعل أمرك بيدك ، وأنه فتح لك خزائن الأرض والسماء

من هؤلاء : تشرشل وروزفلت وستالين ؟

هم ناس أمثالك ، ولكنهم اعتمدوا على عزائمهم فجعلهم الله من العظماء

وهل كانت البداية الأولى لهتلر وموسوليني تبشر بأن ستكون لهم فاعلية دولية فى السلم أو فى الحرب ؟

وهل كانت البداية الأولى للسيو بونابارت توحى بأن سيكون الإمبراطور نابليون ؟

عصارة المتاعب هى التى صنعت الأعاجيب فحوَّلت الأطفال إلى رجال ، وعصارة المتاعب هى التى نقلت هؤلاء من التراب إلى السحاب

إتعب قبل أن لا تتعب ، فالتعب أمضى من السيف فى اختراق المصاعب والأهوال

الراحة سمٌّ زعاف ، وهى شؤمٌ على الأعضاء والشرايين والأعصاب

(١) الغزالى يقول « منافع الأعضاء » فيما نسميه اليوم « وظائف الأعضاء »

لا تبتسم للراحة ، فلا راحة إلا بالتحرر من المسئولية ، وهذا حظ المجانين

إن آذاك نصحي فأنا أوجهه إلى نفسي لا إليك، لأني أحوج منك إلى هذه الكلمات ، بعد أن كدت أرتاب في المنهاج الذي اخترته لحياتي

الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية

المنتج في عالم الاقتصاد هو الذي يصنع ويورد إلى عملائه هنا وهناك . والمستهلك هو الذي يشتري ما تنتج المصانع من صنوف البضائع . والصلة بين المنتج والمستهلك صلة طبيعية عرفها الناس من قديم الزمان ، وإن لم تخلُ من الشعور بأهمية الفرق بين الإنتاج والاستهلاك في وزن أقدار المتعاملين

والمنتج هو أيضاً مستهلك ، فمصانع « المحلة » بالديار المصرية ، ومصانع « لنكشير » بالديار الإنجليزية ، هذه المصانع تنتج الأقمشة ، وهي مع ذلك تستهلك الخيوط فتحتاج إلى الأقطان التي تخرجها المزارع المصرية والأمريكية

ومن الواضح أن المنتج أقوى من المستهلك ، لأنه المتحكم الأول في الأسواق ، ولأن المستهلك يعجز عن مقاومته في أغلب الأحيان

فما الرأي في الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية ؟

وما مركزنا الصحيح بين المنتجين والمستهلكين ؟

قضينا زمناً ونحن عملاء أمناء للثقافات المجلوبة من بلاد غير هذه البلاد ، فمتى ننتج بأكثر مما نستهلك ؟ ومتى نحاول غزو الأسواق الأجنبية بالفكر والبيان ؟

قد يقال إن الفكر المصري منتج بالنسبة لكثير من أمم الشرق العربي والإسلامي

وأقول إن هذا ميدان غير جديد ، فالعرب والمسلمون إخوة لنا بالشرق ، وما بيننا وبينهم من الجاذبية الروحية قد يوجب أن يرضوا منا بالقليل ، وإن لم ندخر جهداً في أن نلقاهم بأقوى مما يلقاهم به أقطاب الفكر من أهل الغرب

والحق أن الأديب المصري غاية في الحرص على النسلح بالجدية في الحياة الأدبية ، وقد يكون جهاده في الأدب أقوى من جهاد نظرائه في الأمم الأوربية والأمريكية ، بدليل ما نشاهد من سيطرته الروحية في الشرق ، مع أنه لا يعتمد على أي سناد ، ومع أن الأدب في مصر لم يصبح أداة من أدوات المجد ، في حدود ما يستحق من التبجيل

فماذا نصنع لنكون منتجين لا مستهلكين بالنسبة لأهل الغرب ؟

ما ذا نصنع ؟

هل نترجم لهم ما يصدُر عن أدباء مصر من الروائع ؟

هل نستجديهم الثناء على ما عندنا من الآداب والفنون ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما الرأي أن نعتز بالذاتية العربية ، وأن نحاول خلق جبهة أدبية من قراء العرب ، وهم يزيدون على الثمانين من الملايين

إن صنعنا — وسنصنع — فسيلتفت الغرب إلى الشرق ، وسيكون لنا في حياة الفكر والرأي تاريخ جديد

ما هذه الغطرسة التي يتمتع بها بعض أدباء الغرب ؟

وما هذه الهالة التي يحيطهم بها بعض المترجمين ؟

أنا أنتظر مساجلة دولية يشترك فيها أدباء مصر مع أدباء الفرنسيس والإنجليز والأمريكان والألمان

أنا أنتظر هذه المساجلة في أقرب وقت ، ليعرف العالم القديم والجديد مكانة مصر في فردوس الأحلام والعقول

مصر تجِدُّ ، وأدباؤها يجدُّون ، وهي تؤمن بأن مكانها في الفكر أعظم مكان ، فإن كنتم في ريب من عظمتها الفكرية فتعالوا إلى السباق في ميدان الرأي والبيان

عند أوربا وأمريكا مدافع وطيارات وأساطيل ، وتلك قوى أنعم الله بها على الأوربيين والأمريكان ، والله يخص بالقوة من يشاء

ولكن مصر السلمية لا الحربية تقول إن مكانها في الأدب لا يدانيه مكان ، وإنها مستعدة لأعظم سباق في ميادين الروح والوجدان

في مصر اليوم عشرون أديباً من العظماء ، على أقل تقدير ، فأين الأمة التي تقول إنها تملك من عظماء الأدب عشرين ؟

مصر اليوم هي دولة الفكر والرأي ، وهي صلة الوصل بين الشرق والغرب ، وإليها المرجع في الفصل بين الحقائق والأباطيل